صاحب السلطان الزائف

ليس لديه من دواعي السلطان غير رتبة البك ، أما المال فحظه الحقيق منه قد لا يسلكه حتى في أمثالنا من عباد الله الفانعين المتواضعين ؛ ومع ذلك فقد توافى له من البأس والسلطان ما يقدر أن يتوافى لغيره من ذوي الثراء العميم والحسب القديم . واتفق له في غير مشقة من وسائل جمع المال ما لو اتفق لسواه من أهل الكدح والجد لعد عندهم من أنعم الله التي ينسى معها كل عنت ويهون في سبيلها كل نصب . . . وهو والحق يقال أحد أفراد أسرة فيها من رزق حظاً عظيماً من الثراء وإن لم تكن كغيرها من الأسر الكبيرة القائمة حولها معرقة في الفضل والحسب

كان يتداخلني العجب كلما ترامى إلى شيء من أنبائه ، حتى لقد تاقت نفسي آخر الأمر إلى رؤيته كما كانت تتوق وهي غريرة إلى رؤية الغول ولكن على بعد وفي مأمن من أظفاره وأنيابه ، وكما قد تتوق اليوم إلى رؤية الدنشي مثلاً وغيره من غيلان الإنسانية رؤية آمنة في غير الورق أو السينما ! ولقد تميل النفس إلى رؤية ما تنكره كما تميل إلى رؤية ما تحب وهذه من عجائب غرائزها !

وتحققت لي رؤيته أخيراً في قريتنا وهي ملتقى عدد من القرى بينها قرية ذلك الآمر الناهي . وكان ساعة رأيته يجلس في حاشية من (عساسيبه) أمام مقهى من المقاهي على الطريق العام ، وهو لا يحلو له الجلوس إلا حيث يراه الغادون والرائحون ، فما يراه أحد من ذوي المكانة إلا أقبل عليه مرحباً مسلماً ، وما من صاحب حاجة إلا ويشكو إليه حاجته ويلتمس عنده طلبته

وجلست غير بعيد أنظر إليه في جلبابه الفياض وقد دفع طربوشه إلى مؤخر رأسه ، واتكأ على عصاه تحت إبطه ، وشمخ بأنفه ، ورفع رأسه إلى آخر ما يسمح به وضع طربوشه الذي ظلت أتوقع من حين إلى حين سقوطه وراء ظهره حتى رأيته يهوي ولكن ليرفعه أحد الجالسين في أقل من ارتداد الطرف ، وقد تزاحم عليه نفر منهم يطمع كل واحد أن يحظى بشرف إزالة ما علق به من التراب بكم جلبابه

وجاء الندل منذ رأوه فأحنوا جباههم ورفعوا أيديهم يحيون « سعادة البك » في ابتسام واحتشام ، ودارت أقداح الشاي والقهوة على الجالسين ؛ وكان لا بني البك عن طلبها لكل قادم في لهجة كريمة حازمة

وشكا البك من غبار الطريق، وسأل محنقاً: ماذا يصنع المجلس الفروي إذاً ؟ ووعد أن يتحدث في ذلك إلى المأمور فسليقاه في المركز غداً ... وإذ جاء ذكر المأمور تقدم رجل في يده عريضة وهو يقول : « يا سعادة البك الله يخليك ... » وقطع عليه سعادة البك كلامه متسائلاً : ألم تنته مسألته بعد ؟ ثم تناول منه ورقته ودسها في جيبه وصرفه طالباً إليه أن يقابله عند باب المركز صباح الغد ، وما لبثت العرائض أن تزاحمت على جيب البك ... فهذا يرجو أن يكون خفيراً ، وذلك يطمع أن يعين فراشاً ،

عنك ليكون شاهداً عليّ إن نكثت بالعهد ولعبت بالميثاق ...

ها هو ذا رسمك يا حبيبتي معي دائماً ... لن أقبّله .. لن أضمه إلى صدري ... وكيف ؟ ! وقد تعاهدنا على أن نعيش في الحرمان حتى يوم الزفاف ، وضننا على أنفسنا حتى بالقبل البريئة ... وكنا نهود الهوى فالخزائن ملأى ... وما بها حلال لنا ، والرقباء غفل ولكننا كنا البخلاء ندخر كل لذة وكل متعة ليوم الزفاف ... يوم نعب كما نشاء في عش الزوجية الجميل ...

يا عروسي ... في سمائها !

لقد شئنا ... وشاء الله ... فما نملك من أمرنا شيئاً ، وإن رحلتك إلى هنا ختامها . وأما شوطي فما زال فيه بقية ... سأقطعها وفياً لعهدك صائناً حبك ... مقدساً ذكرك ... ولن أكون في هذا إلا راداً لك بعض حقك ، مؤدياً لك يسيراً من دينك ...

يا عروساً ... زفت إلى قبرها ... !

لقد كنا نتعجل الزفاف ، نخشى أن يجرفنا تيار الحرب فنذهب في غباره ... وكم أعددنا الهدايا الرقيقة الضاحكة نفاجئ بها صبينا تعجلنا يا عزيزتي ... وتعجل القدر ... فاختطفك الحمام وأثواب العرس ما زالت تحاك . ووسائد الفراش ما زالت تنجّد . وضمك القبر قبل أن يضمك الحبيب ، وأعلام الفرح الخضراء نكسناها في يومك الرهيب ... والبطاقات الوردية الجميلة التي أعددناها للمدعوين جللناها بالسواد، ونعيناك بها للشيعين والمعزين

يا عروسي ... في جوار ربها ... !

وداعاً ... وداعاً ... إلى لقاء ...

علي مترفي السيد

وفلان يرجو نقل ابنه إلى بلد قريب ، وآخر يستعجله ما وعد فى أمره ، وهو يكرر لهم جميعاً وعوده مؤكداً مستمهلاً إلى أمد قريب ...

وتسلل أحد جلسائه إلى هؤلاء فتحدث إلى كل منهم على انفراد برهة ، ثم عاد إلى حيث يجلس سيده وفى جيبه هو أيضاً ورق ولكن من نوع آخر !

ولاح ضابط الشرطة مقبلاً فأفسح الجالسون له مكانا قبل وصوله ، وأقبل فسلم على البك فى اهتمام عظيم لا تفلته عبارة من عبارات الترحيب ولا يفوته شىء مما يحفظ من التحيات يشفعها جميعاً بألقاب التعظيم والتبجيل ؛ وبدا لى أنه ضابط ذكى إذ كان يزيد فى ترحابه وتحياته كلما رأى أثرها الطيب على قسمات البك ، وقل فى الضباط من لا يتقن هذا التهويل فى مناسبة كهذه ، فهو لا يكلفهم شيئاً ، أما ما يعود عليهم منها فأقل ما يرجونه أن يكف عنهم أمثال صاحب السلطان هذا ألسنتهم عند أولى الأمر إن لم يجودوا عليهم بالثناء والإطراء بل وبالشفاعة والرجاء إذا اقتضى الحال شفاعة أو رجاء

وارتاح البك إلى حضور الضابط فانطلق يتحدث عن مقابلاته التى ضاق بها ذرعاً ، فحسبه أن قابل فلاناً وفلاناً من الوزراء فى أسبوع أكثر من ثلاث مرات، أما مقابلاته للمدير فأكثر من أن يحصرها عد ؛ ثم يمسك البك قليلاً ويعود فيقسم بحياة أبيه وقد تصنع الغضب أنه لولا ابتغاء وجه الله لما رضى بأن يسود وجهه من أجل الناس على مثل تلك الحال الأليمة

وتعلق منظارى بمرآه فما يكاد يتحول عنه ؛ وذكرت ما ترامى إلىّ قبل من أنهائه وصدقت ما كنت أحمله قبل رؤيته على المبالغة ؛ فهذا الرجل جدير حقاً أن يذهب بنفسه، كما علمت وقد توسلت به بنى معروفة ، فيرجو لها من بيدهم الأمر ألا يحول الشرطة بينها وبين ما تأتيه من الفجور فى أحد الموالد ، لا لشىء إلا ليثبت جاهه فى ساحة المولد ... وهذا الرجل جدير بأن يوهم أغرار الناس بأنه قادر حتى على أن يحول بينهم وبين يد العدالة، وإلا فكيف ذهب يتوسل إليه ، كما قد علمت علماً لا يداخله شك ، من كانت تهمتهم جريمة القتل ؟ وهذا الرجل جدير حقاً بأن يفهم كل من له به صلة بأن جاهه لا يقف عند الخفراء والفراشين وإنما يتعدى هؤلاء إلى العمد وإلى من هم أكبر خطراً من العمد من جماعة الموظفين ... وهذا الرجل جدير بأن يحتجز سيارات النقل عند مدخل قنطرة على حدود قريته فلا تمر إلا أن تدفع قدراً معيناً من المال ، وأخيراً هذا الرجل جدير بأن يصب نقمته على من يشاء وأن يختص بنعمته من يشاء ، وله فى مجال النقم حديث طويل أراه نقمة بالغة أن أوذى به أنفس القراء

أما زرعه إذا حان وقت الزرع وأما حصاده إذا أراد الحصاد فحدث عنهما ولا حرج، فأهل قريته جميعاً لا يسألونه على جهودهم أجراً إلا الرضاء ... على أن حظه من الزرع والحصاد لا يتطلب عظيم مشقة لقلة ما يمتلك من الأرض إلا إذا شاء له جاهه فاستأجر أرضاً من أصحابها وزرعها فى نظير أجر لا يحظى بمثله غيره من الناس

وحمدت الله أنى لم تقع علىّ عين البك فلقد كنت منه كالجن أراه من حيث لا يرانى، فما لى طاقة بأن أتلقى منه نظرات الكبرياء والاحتقار التى رأيته يشيع بها كل فرد ممن يسميهم المتعلمين سواء من سلم عليه منهم أو من أعرض عنه ، وكان لا يفوته أن يسأل عمن يعرض عنه ثم يذكر آباءهم متسائلاً — وإنه ليعلم — تساؤل الساخر المستطيل ، وهو يرد إلى هذا الصنف ممن يسمون المتعلمين فى القرى كل أسباب الفساد والرذيلة ، ولست أدرى ماذا كان عسياً أن يحدث بينى وبينه إذا أخذتنى عيناه فنظر إلى وهو لا يعرفنى هاتيك النظرات ؟ على أنه لم يفطن إلى مكانى وكفى الله المؤمنين القتال !

وأرسل البك فى طلب سيارة فحضرت ، ووقف السائق حتى نهض البك للركوب فخف به جلساؤه ، ونادى أحد النذل ووضع يده فى جيبه ، ولكن النذل أسرع قائلاً : « الحساب خالص يا سعادة البك » ، وأشار إلى أحد الحاضرين وتظاهر هذا بالحياء وشكره البك واتخذ مكانه فى السيارة بعد أن سلم على مودعيه ، وركب معه من يستصحبهم من أهل قريته

وانطلقت السيارة تحمل ذلك الوجيه العظيم ، ومن عجيب أمره أنه على عظمته التى رأيت لا يملك سيارة ولكن كل سيارة فى هذه الجهة ملك له ، فهى جميعاً رهن إشارته ، ولن يعدم أن يجد « الحساب خالص » إذا اتخذ إحداها على يد رجل ممن يصحبونه